تأملات في رواية جبرا ابراهيم جبرا

« السفينة »

بقلم جورج سالم

نستطيع ان نقول دون تردد او مغالاة ان رواية « السفينة » لجبرا ابراهيم جبرا هي رواية جديدة كل الجدة ، ولا سيما بالنسبة الى الادب الروائي العربي . بيد ان السؤال الحقيقي الذي ينبغي ان يطرح في صدد الحديث عن هذه الرواية هو السؤال التالي : اين تتجلى جدتها ؟ أفي موضوعها أم في دراسة الشخصيات أم في طريقة بنيانها الروائي ؟ أم في هذه العناصر مجتمعة ؟ ذاك ما نسعى للاجابة عنه في دراستنا لهذه الرواية .

فما الموضوع الذي تطرحه هذه الرواية وما الهدف الذي ترمي اليه ؟ وما التكنيك الفني الذي لجأ اليه الكاتب لينقل الينا هذا العالم الفني المصطخب المتأزم بخلفياته المعقدة العميقة ؟

والحق أن هذه الرواية لا تفصح عن موضوعها بيسر وسرعة . فلا بد للقارىء ان يبذل كثيرا من الجهد والاناة والصبر كيما يصل مع المؤلف في الفصول الاخيرة الى كنه موضوعها بسبب الطريقة الخاصة التي عرض بها الروائي روايته . ولسنا نزعم انها طريقة مبتكرة بالنسبة الى فن الرواية ، واذا كانت رباعية الاسكندرية للورنس دوريل قد أثرت في فتحي غانم (الرجل الذي فقد ظله) وفي ميرامار نجيب محفوظ (ميرامار) فاننا نجد في هذه الرواية ملامح واضحة من اسلوب وليم فوكنر وفنه الروائي . الا ان هذا التأثر لا يفقدها ما تتمتع به من اصالة وصدق وحرارة في الاسلوب وسيطرة بارعة على التكنيك .

تبدو الرواية ، اول وهلة ، عرضا لرحلة بحرية يقوم بها عدد من الاشخاص على ظهر هذه « السفينة » التي تتنقل بهم في موانيء البحر المتوسط . ويسلط الروائي الضوء على عدد منهم ، في طليعتهم لمى عبدالغني ، والدكتور فالح حسيب وعصام السلمان ، ووديع عساف ، واميليا فرنيزي ، الى جانب بعض الشخصيات الثانوية الاخرى كمحمود الراشد ، ويوسف حداد والدكتورة مها الحاج .

تتألف الرواية من فصول يتناوب الكلام فيها كل من عصام السلمان ووديع عساف على التوالي من بداية الرواية الى منتهاها ، ويفسح الروائي المجال مرة واحدة لاميليا فرنيزي لتسرد فصلا من الفصول . وقد أتاحت هذه الطريقة للروائي ميزتين اثنتين : اولاهما الاعتماد على ضمير المتكلم في صياغة الرواية ، مما يسر له ان يظهر ابعاد الشخصيات من الداخل ، وثانيتهما المضي بنا مع الابطال ، في العديد من المرات الى ماضيهم البعيد في المكان والزمان فتغلب بذلك على مشكلة السكان المحدود الذي تجري فيه احداث الرواية (سفينة الهركيوليز) والزمان المحدود الذي تدور فيه تلك الاحداث (ايام قليلة) .

ان مهمة قارىء الرواية ـ ومهمة الناقد كذلك ـ لا تتوقف عند تلقي الاحداث ومتابعتها ، بل هو مدعو الى اعادة بناء الاحداث في ذهنه ، وهو مدعو الى الاسهام في اعادة تكوين هيكل الرواية بعد ان يفرغ من قراءتها . وهذا ما يعطي الرواية ، في اعتقادي ، كثيرا من جدتها واصالتها . فنحن نصغي في الفصل الاول مثلا الى عصام السلمان وهو يتحدث عن البحر وعن رحلته هذه ـ وما اكثر مايتحدث ابطال هذه الرواية ـ ويفاجأ عصام السلمان بوجود لمى مع زوجها الطبيب فالح عبد الواحد حسيب في السفينة : « ماكنت لاعرف ان لمى ، لمى نفسها ، لمى المسكينة ، لمى الباكية بعض الليالي ، الغادرة باهلها من اجلي ، الضاحكة على عيني ، لمى ستكون ايضا هنا ..» ومن خلال هذا المونولوج الطويل الذي يختلط فيه الحاضر بالماضي ، حيث تمتزج محاورة الناس على ظهر السفينة بذكريات قديمة نتعرف اهم شخصيات الرواية ، ونتعرف البيئة التي جرت فيها الاحداث، ويطرح الروائي احدى الثوابت التي تشد اواصر الرواية كلها : علاقة عصام السلمان بلمى عبد الغني . فهذا المهندس العراقي الذي احب لمى ذات يوم وأحبته ، هو اليوم هارب من لمى على ظهر هذه السفينة . فكيف يجدها فيها ؟ « لقد لحقت بي الى المكان الوحيد الذي كنت اظنه في مأمن منها .... » اصدفة هذه ؟ اتصميم ؟ املاحقة ؟ اغاظة ؟ اما كفانا ما فعلناه وقلناه قبل أن تتزوج ؟ صدفة لعينة ...) لقد نشأت بين عصام السلمان ولمى عبدالغني علاقة حب عنيفة ، ولقد تحطمت هذه العلاقة اذ تزوجت لمى من الدكتور حسيب . « العطش يذكرني دائما » بلمى . حتى اسمها يحرك اغوار العطش في . وقد كان حبنا عطشا وبقي في جفاف العطش . (١) «وما عصام ، في نهاية المطاف ، الا انسان هارب ، عجز عن تحمل الحياة في بلدته فلاذ بالفرار . اما تفصيلات هذه العلاقة والاسباب التي حالت دون زواج عصام من لمى ، ومغامرات لمى مع عصام في انكلترا يوم كانا طالبين هناك يدرس هو الهندسة ، وتدرس لمى الفلسفة، فستتداعى في ذهن عصام في فصول لاحقة .

ويتوقف عصام عند مسافر تعرف اليه في السفينة هو وديع عساف ، فلسطيني يقيم في الكويت ، ويعمل في التجارة .وستمثل

(١) السفينة ص : ٣٠

هذه الشخصية دور الضمير الذي يرقب الاحداث والعلاقات في الرواية . ان عصام يروي طرفا من احاديثه وآرائه وفلسفته في الحياة ، وسرعان ما نستشف في اقواله آلاما عميقة ، يبوح بها في لوعة وحرقة . فهو يشكو من الغربة ، غربة الانسان عن وطنه وأرضه . « لعنة واحدة هي اوجع اللعنات : لعنة الغربة عن ارضك سل الفلسطينيين سل الفلاح الذي يذكر تجرح قدميه على تلك الارض كأنه يذكر لذة حياته الوحيدة ، كأنه يقول ان حياته ، بعد أن ابعد عن أرضه ، ماعادت حياة . »

وننتقل في فصل ثان لنستمع الى وديع عساف يتحدث عن الرحلة والسفينة ، وعن حياته وعمله . لقد صار رجل اعمال رغما عن انفه : « اضعت ارضي في القدس واكتسبت مكتبا للاستيراد في الكويت . نفيت عن جذوري وكوفئت عن نفيي بالبيع والشراء . » كذلك يحدثنا عن علاقته بالدكتوره مها الحاج التي تعرف اليها في بيروت ، وهو لم يقم بهذه السفرة الا لانه ظن ان مها سترافقه بل انها هي التي حجزت له مكانا في السفينة ثم تركته للبحر وحده بعد خصام عنيف بينهما ، وعن طريق التداعي يتحدث عن عصام السلمان الذي عرفته به اميليا فرنيزي من اصدقاء مها في بيروت . ويعود الراوي هذه المرة ، ـ عن طريق التداعي كذلك ـ الى ماضيه السحيق ، الى طفولته ويتوقف عند صداقته بفتى من ابناء فلسطين هو فايز عطا الله ، في صفحات رائعة تنبض بالالم والحب ، وتصور تفتح نفس ذينك الفتيين في القدس ، واستشهاد هذا الفتى الرسام الصغير . ان عودة وديع عساف الى هذه الذكريات وحديثه عن صديقه وتصويره لوقائع ما حدث في الخامس عشر من ايار سنة ثمان واربعين تبدو لنا من اعمق ما كتب في هذا الموضوع واجمله وأغناه . ففي كل سطر من سطوره نبض الواقع الاليم والتجربة الحادة والصدق الرائع .

فاذا عرفنا شخصية كل من عصام السلمان ووديع عساف في أبرز خطوطها وملامحها عاد بنا الروائي الى ماضي عصام ، وانه لماض مثقل بالدم والثأر ، يكشف عن ملمح بارز من ملامح المجتمع العربي : فلقد قتل والد عصام السلمان احد اقربائه جواد الحمادي بسبب صراع حول الارض ، فاضطر ان يهرب ويقضي حياته كلها متخفيا يتنقل من مكان الى مكان وكانت هذه الجريمة سببا في بؤس الاسرة وسببا في تمزق عصام . « لماذا قتل ابي جواد الحمادي وانزل بحياتي لعنة مازلت أعانيها ، تمرد وقتل ثم عاش منفيا عنا . الكل قال : حسنا فعل . لقد رفع رؤوسنا . لا بأس ولكن الآلهة ظلت تطالب بالانتقام ، وعلى نحو مهين . فرضت عليه الحياة بعيدا عنا ، وجعلت منه مجرد اسطورة . ولم تستنكف من أن تفقدني المرأة الوحيدة التي أحببت ـ وتبقيني معلقا بها من بعيد ... » .

على هذا النحو نخطو خطوة جديدة في معرفة علاقة لمى السيدة البغدادية الجميلة بعصام السلمان وزوجها الطبيب . وتمهد لخاتمة الرواية المفجعة حادثة انتحار احد المسافرين الذي رمى بنفسه في البحر . ويعود عصام السلمان الى الحديث المسهب ، فيتحدث عن وديع عساف الذي سيطرت شخصيته على نفسه ويتكهن بوجود علاقة له بالفدائيين ، كما يتحدث عن الدكتور فالح وصلته به التي تعود الى ايام الدراسة ، وعن القرابة التي تجمع بين الطبيب وزوجته وتتضح شيئا فشيئا علاقة عصام بلمى ، هذه العلاقة التي تعود الى ايام الدراسة في انكلترا ، وتكون ، في رأينا ، العمود الفقري للرواية والخيط الذي يجمع بين الفصول فيها والاحداث كلها . ويتوغل الروائي في دراسة شخصية الطبيب ونفسيته ومشاعره ، فاذا هو انسان ناقم على المجتمع وما فيه من كذب ورياء ، وتحمل نقمته ورؤيته للحياة كثيرا من التشاؤم واليأس القاتل وادانة لطبقة المثقفين في المجتمع . يقول : « اف ، هؤلاء الكذابون . الصحفيون يكذبون . الادباء يكذبون . السياسيون يكذبون . الاساتذة يكذبون . نفاق لا نهاية له . يتحدثون عن الانتهازية ! اعطني ما أريد وخذ ما تشاء من كلام ، شتيمة ، مدح ، يكفي ان تكذب مرتين او ثلاثا لتستمرىء الكذب . يخافك الناس ، لانهم يعرفون انك بارع في الكذب . والكذب يجر الى المزيد من الكذب ، عاليا وسافلا وفي كل اتجاه ، واذا الحياة كلها تتقولب على التظاهر والزعم والدجل ، ويصبح رأس اللسان اخطر من رأس الرمح ، كيف استطيع والحالة هذه ان اقرأ جريدة ، ان اسمع خطبة وطنية او سياسية او اجتماعية؟ الكلمة تعني عكسها ، والعكس لا يعني شيئا ، والكل يعلم انه يكذب. اكذب عليك وتكذب عليّ ، والشاطر من يجعل اكذوبته اروع ، او افظع، او افتك ـ حسبما تقتضيه الظروف ـ والظروف مؤاتية لخمسين نوعا من الكذب . هذا يقول انه يؤمن بالحرية : انه يكذب ، انه يهيىء لك زنزانة . وذاك يقول انه يؤمن بالشعب : انه يكذب . راجع حسابه في المصرف بعد مدة . انظر الى البيت الذي ابتناه في هذه الاثناء . الى قناني العطر التي تراكمت على منضدة زوجته أوخليلته. وكلما انقلبت الاحوال ، ظهرت فئة جديدة من الكذابين . والصادق واحد في الالف ، ضائع ، مستسخف ، ساذج ، حائر ، بائر ، لا يفهم لماذا لا يتقدم في الحياة ... (١) »

واذا كان الروائي قد اختار ان يبدأ الرواية من نقطة قريبة من نهايتها فلا بد من عودات عديدة الى الماضي لتتضح علائق الابطال بعضهم ببعض . واذ يبوح عصام السلمان بماضيه كله نصل الى ذروة الرواية : « ضحكت الآلهة عندما جعلت أبي يطعن جواد الحمادي بخنجر في قلبه ، على رصيف مقهى في الكرخ ، وبعد ذلك بعشرين عاما ارسلت ابنة اخيه تتصيدني في مرقص للطلاب في لندن . » لقد كان هذان الشابان متحابين اذا . وقد امضيا اياما بالغة العذوبة في انكلترا . ولكن هنالك واقعا رهيبا قاسيا كان ينتظرهما ، هو ارث قديم من العادات العشائرية القبلية ، وكان هذا الارث أثقل من أن يتحدياه او يصمدا أمامه ، وهكذا كان من المستحيل ان يتزوجا . فبين الاسرتين ، رغم اواصر القربى التي تشدهما ، ثأر دام، وهكذا افترقا ، ولهذا تزوجت لمى من الطبيب ذي المستقبل الواعد .

بيد أن لمى ظلت على محبتها لعصام ولم تنفصم صلاتهما ، لقاء عابرا او مخابرة سريعة . لم تكن تتقابل الا سرا ، بعد ان تلجأ الى الف خديعة . واذ علمت لمى انه مسافر في هذه السفينة تاركا عمله في العراق ، مصمما على العمل في انكلترا ، حجزت لها ولزوجها مكانا فيها . وتنكشف الحقيقة لعصام . فهذا الانسان اليائس الهارب تلاحقه لمى كأنها قدره . « لكنك افسدت عليّ كل شيء . انا هارب منك . منك بالذات . ألا ترين ؟ انا هارب من اشياء كثيرة . من الجنون. من الطوفان ، من كل ماكان جزءا من تركيبي الداخلي ... كم مرة تحدثنا بالتلفون ؟ كم مرة التقينا ، وكأننا غرباء ، نتصافح تصافح الغرباء ، ونتخاطب بتفاهات الغرباء ؟ وطعم شفتيك على شفتي لايزول ولا يخف . وعندما استطعت الهرب ، دبرت ملاحقتي حتى في هزيمتي . لمى ، انك رهيبة . (٢)

واغتنم العاشقان ارساء السفينة في نابولي ليتخلفا فيها ثم ليذهبا وحدهما يقضيان النهار فيها وحدهما . وها هي ذي المأساة تقترب من نهايتها . وان شخصية اميليا فرنيزي التي كانت تظهر عرضا بين حين وآخر في تضاعيف الرواية ، لتأخذ الان كل ابعادها . فهي تحدثنا في هذا الفصل الوحيد المخصص لها عن علاقتها الغرامية

---

(١) السفينة : ص ١٣٠ .
(٢) السفينة ص : ١٨٠ .

بالدكتور فالح حسيب الذي ابرق اليها من بغداد ان تحجز لها مكانا في هذه السفينة بعد ان أقنعته زوجته لمى بالسفر .

ويتخلف الدكتور واميليا متعللين ببعض الاعذار عن مرافقة ركاب السفينة الذين قرروا القيام برحلة يزورون فيها معالم جزيرة كابري واثارها ، كيما يتاح لهما ان يقضيا النهار معا وحدهما . وتأتي الضربة القاصمة في مدينة نابولي : لقد رأى الطبيب زوجته مع عصام السلمان بينما كان هو جالسا مع اميليا فرنيزي في احد المقاهي.نقول اميليا : رايت فالح ينظر الى الرصيف الاخر من الطريق ويصعق . نظرت الى حيث اتجهت عيناه ، ورأيت لمى وعصام يسيران ذراعا بذراع مهرولين نحو المدينة . لم تكن دهشتي كبيرة ، غير ان فالح فقد السيطرة على نفسه ، وحسبت انه سينهض في الحال ويركض في اثرهما . امسكت بيديه ، واذا هما تنتفضان . اصفرت وزاغت عيناه . ولم يقل شيئا . (1) ويتفجر كل الم الطبيب فيرتمي صامتا على احد اسرة الفندق الذي نزلا فيه .

ونطالعنا الفصول الاخيرة بانتحار فالح ، ونعرض لنا مذكراته واعترافاته ورسائله الى لمى . وفيها يبوح بكل ضعفه وألمه ،بتشاؤمه وعربدته وسوداويته ويأسه العاتل السريع .

وتعود لمى مع عصام السلمان وجثمان زوجها الى بغداد ، بعد ان قطعوا رحلة الحياة والحب والموت في هذه السفينة .

ان فيمه هذه الرواية لا تتجلى في الحدث الانساني المتوتر الذي ترويه وحسب ، بل في دراسة الشخصيات دراسة عميقة مستأنية تظهر كنافتهم السيكلوجية وتقلباتهم النفسية وصراعاتهم الداخلية ، واضطراباتهم واهتماماتهم ومشاغلهم وما يجول في نفوسهم وخواطرهم، في قوتهم وضعفهم وسلمهم ويقينهم وحبهم وبغضهم وأملهم ويأسهم ، وموقفهم من العالم والوجود . وقد برهن الروائي على قدرة كبيرة حين استطاع ان يلج الى اعماق هذه المجموعة من الناس المختلفة الطبائع المتباينة الامزجة ، فأظهر ما يميز بعضهم من بعض . وان الاختلافات الدقيقة والكبيرة التي تميز بين مخلوق واخر في الحياة تظهر جلية في هذه الرواية ، ويتخطى الروائي ، في اثره هذا ، طريقه الروائيين التقليديين الذين يقدمون في رواياتهم انماطا انسانية معينة محددة ، كما يتجاوز الطريقة التقليدية التي تجعل للرواية بطلا تدور حوله الاحداث ، فالبطل في هذه الرواية هو اولئك الاشخاص كلهم جميعا . بل لم لا تكون السفينة نفسها هي بطل الرواية ، فهي التي جمعت هؤلاء الاشخاص وهي التي انطلقت بهم وهي التي حطمت من حطمت منهم وعادت بمن عادت .

كذلك تتجلى قيمة هذه الرواية في تصوير الروائي لجوانب من الحياة العربية والمجتمع العربي بما يعتمل فيه من قيم وارث بال ونظامات واسواق دفينة وتمزق دام . ولا بد أن نلحظ ان ابطال الرواية كلهم من المثقفين ، والرواية بهذا تقدم صورة لتمزق عدد من المثقفين العرب في بؤسهم وعجزهم عن مجابهة الواقع والحياة ، وفرارهم منهما، وخوفهم من السلطة (2) التي تطاردهم بسبب معتقداتهم وافكارهم . وحين يتذكر القارىء الروايات العربية العديدة التي حاولت ان تصور بيئة المثقفين يدرك مدى نجاح هذه الرواية حيث اخفق كثير غيرها .

اما النغم الطاغي المسيطر على الرواية كلها فهو تصوير الزيف . فالابطال لا يرون الزيف الذي يحيط بهم وحسب بل يعيشون هذا الزيف ، ويشكل لحمة حياتهم . ولعل هذا سر تمزقهم واضطرابهم وهربهم وانتحار الدكتور فالح على وجه التدقيق . فكل منهم يريد ان يصل الى هدف ما ، ويريد أن يعيش الحياة كما يريدها ان تكون، وينتهي به الامر الى غير ما يريد ، فيعيش هذا الواقع مكرها على العيش فيه ، ويسبب له ذلك كله الالم الحاد ، نظرا لما يتمتع به من وعي وحساسية . وهكذا يسعى الى ايجاد مهرب له . وديع عساف انتزع من ارضه ، من القدس . من الارض الصلبة كالصخر كما يقول، وآل به الامر ، وهو الذي يجب ان يعيش في وطنه يزرع الارض وينجب الاطفال ويرسم اللوحات ، الى ان يصبح تاجرا في الكويت يمارس مهنة لا يحبها . وذات لمى وعصام المنحابان لا يتاح لهما ان يتزوجا لسبب زائف يرفضه المثقف ، كل مثقف . وتضطر لمى الى ان تتزوج من رجل لا تحبه . وجد فيه اهلها صفقة رابحة فتنتشوه حيانها ،ويظل حبها لعصام الذي لا تلتقي به الا لقاء عابرا ، لقاء الغرباء ، وبذلك تكون علاقتها بزوجها زائفة ، وتنشوه حياة الدكتور فالح الذي لم تمنحه زوجته الحنان والمحبة والاخلاص ، فيتعلق باميليا ، وهكذا فان الزيف الذي يكرهه اولئك جميعا يعشش في حيواتهم ، واذا صحت مقولة الفديس بولس بأن كل ما لا يصدر عن قناعة فهو خطيئة ، فان الخطيئة ههنا ، وبهذا المعنى ، تحيط بهؤلاء الاشخاص . ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء الابطال أشقياء في حياتهم تعساء في اعماقهم، فهم يعيسون في الجحيم او فيما يشبه الجحيم . ومن هنا نفهم معنى استعادة احد الابطال لما رآه دانتي مسطورا على بوابة الجحيم : « عن كل امل تخلوا ايها الداخلون هنا . »

ونود ان نجمل ههنا الامور العديدة التي تعطي هذه الرواية فيمتها في مسار الرواية العربية .

اولها : الثقافة الفنية الواسعة التي نطالعنا بها صفحات الرواية في مواضع عدة . ان ابطاله يتحدثون في شؤون الحياة احاديث ملوءها العمق والتجربة ، ويتناقشون في امور الفلسفة والدين نقاشا فيه كثير من الجدية والمعرفة العميقة ، ويكشف ذلك كله عن ثقافة المؤلف الواسعة الشاملة في أمور الفلسفة واللاهوت والادب والرسم والنحت والآثار والاساطير على نحو لا نعرف له نظيرا في الرواية العربية المعاصرة .

وثانيهما ذاك التكنيك الفني الجديد الذي ادخله جبرا ابراهيم جبرا الى الرواية العربية ، كما اشرنا الى ذلك من قبل ، وذلك حين اختار هذه الطريقة المعقدة لعرض احدث الروائي وتصوير الاشخاص معتمدا على ضمائر المتكلم في السرد وعلى تقاطع هذه الضمائر ، والعودة بنا الى ماضي كل منها قبل الوصول الى نقطة التأزم والمأساة. واذا كانت هذه الرواية تذكر بشيء فانها تذكر بروايات فوكنر ولا سيما روايته « ابان احتضاري » .

واخيرا فالى جانب النقاط السابقة هناك الاسلوب الذي كتب به جبرا ابراهيم جبرا روايته هذه . انه اسلوب مشرق مضيء ، تحمل الكلمات فيه شحنة كبيرة وقدرة على التعبير عن الخوالج .والاسلوب هنا يسمو على النشرية والاداء التقريري الصحفي الذي كتبت به روايات عربية عديدة ، فالصورة تلعب دورا كبيرا في التعبير واداء المعنى . والجملة تفيض بمعناها بسبب المفردات الفنية المحملة بطاقة لغوية غنية . ان الروائي ههنا يعيد الى الاسلوب واللغة دورهما المنسي في انشاء الادب والابداع الفني .

بهذا كله تشق رواية « السفينة » طريقها بين الدروب الجديدة التي سلكتها الرواية العربية في مسيرتها وتطورها .

حلب — جورج سالم

(1) السفينة ص : ١٩١ .

(2) تراجع الصفحات التي صور فيها الروائي محمود الراشد في نوبة فزع وخوف اصابته حين رأى نمر العجمي في السفينة . ص : ١٤٠ وما يليها .

مكتبة النوري

دمشق ـ تجاه البريد العام

وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .